"طيف يارا"
من كتاب الجنيات/ المؤلف: أندرو لانغ/ 1904

يحكى أن في أقصى جنوب هذه البلدة حيث تشرق الشمس باعثة أشعتها الحارقة في كل مكان فيها، فالجميع هناك يداومون على النوم طوال النهار و يعم الصمت في الغابة الخضراء، إلا في الإصباح أو في دوجى الليل- ذات يوم عاش شاب في سن الفتوه و فتاة يافعة لم يسبق لها الزواج في أقصى حنوب المدينة. ولدت تلك الفتاة فيها ولكن نادرا ماغادرتها في حين كان ذلك الرجل مغترباً و السبب الوجيه لمجيئه إلى هذه المدينة القريبة من النهر الواسع أنه عاطل عن العمل من حيث أتى.

بعد بضعة شهور من وصوله حينها أصبح الجو أكثر اعتدالاً و أصبح الناس أكثر يقظه من ذي قبل. في يوم من الايام أقيمت حفلة كبيرة في مكان يبعد عن مساكن المدينة بقليل حيث توافد الحاضرون من مسافات بعيدة تُقراب 30 ميلا أو أكثر مرتدين ثيابً زاهيةً حمراء أو زرقاء اللون في حين زُين رؤوسهم بطوق من الأزهار فقد صار البعض رجالاً و ركباناً، و البعض الاخر كان قادماً في عربات فارهة تجرها الخيول.

كانت المره الاولى التي كان حاضراً فيها مناسبة كهذه المناسبة، وقف صامتةً منطوياً يشاهد الشباب (الفتيان والفتيات) يؤدون الرقصات و الحركات المرنه في حين حبست انفاسه تلك الفتاة بارهة الجمال، في فستانها الابيض و ذات طوق من الجُلنار الاحمر التي زينت رأسها بيه، حيث كانت له أكثر جمالاً وفتنةً عن جميع الفتيات فلم يلتفت لفتاة سواها.

بعد انتهاء الحفلة، عاد الشاب إلى منزله و لاحظ جميع أصدقائه اضطرابه و تغير سلوكه.

في اليوم التالي من عمله لم يفارقه وجه الفتاة و هي ترمي بالكرة لرفيقتها أو حينما تتمايل بمرونه من بينهم راقصة. و في تلك الليله جافاه النوم و بعد أن ظل لساعات في سريره، ينهض ليخرج و يغطس في بركة صغيرة تقع بعيداً في الغابة.

استمر الشاب على هذه الحالة لبضعة أسابيع، ثم ابتسم له الحظ في النهاية. أنه في إحدى الليالي عندما كان يمر بالقرب من منزلها الذي تعيش فيه ،رأها واقفة وهي لاحولة لها ولا قوة، تحاول بمروحتها صد هجمات كلب وحشي كان يطاردها ليفترسها. ظهر (ألونزو) ذلك الشاب، حيث كان أسمه على هذا النحو، أمامها وبقبضة منه هوى ذلك الكلب صريعا على الطريق وعندئذ ساعد تلك الفتاة الخائفة و الشبه فاقده للوعي إلى الشرفة كبيرة ذات أطلاله رائعة حيث كان والديها يجلسون. و من تلك اللحظه أصبح (ألونزو) مرحباً به كضيف عزيز في ذلك المنزل و لم يستغرق كثيراً حتى أصبح الزوج المنتظر ل(جوليا).

أعتاد (ألونزو) يوما بعد يوم إنهاء عمله ومن ثم الذهاب إلى منزلها الذي كان جزء منه تغطيه النباتات المزهرة و الزاحفة الجميلة من حوله، حيث تنتقلت الطيور الطنانه من شجيرة الى شجيرة و تغني الببغاوات من الألوان كافة الأحمر، و الاخضر و الرمادي منها معاً. و عند وصوله يجد خطيبته في انتظاره و من ثم يقضيان حوالي ساعة أو ساعتين تحت النجوم الملألِئه الكبيرة التي تجعله يشعر كما لو كان قادراً على الإمساك بها. و في تلك اللحظة بينما كانوا يتأملون في جمال السماء و نجومها، دار حوار بين (ألونزو) و (جوليا):-

سألت(جوليا) فجأة :"ماذا فعلت الليلة الماضية بعد عودتك للمنزل؟"

أجابها (ألونزو): "فعلت كالمعتاد فعله". كانت الحراره شديدة في تلك الليلة لذلك لم يكن هناك جدوة من الذهاب إلى الفراش ثم قررت وسرت مباشرةً إلى الغابة ،واستحميت في واحده من تلك البرك العميقة المظلمة والواقعة على حافة النهر. فقد اعتد قبل عدة شهور على الذهاب إلى هناك مراراً و لكن حدث أمراً الليله الماضيه لم يكن مألوفاً في حين كنت أغطس للمرة الاخيرة في إحدى البرك ،سمعت -أحيانا من جانب وأحيانا من جانب آخر – صوت غناءِ أعذب و أرق من

صوت العندليب و لكنى لم أتمكن من إلتقاط أي كلمة، و في تلك اللحظة غادرت البركة و ارتديت مسرعاً ملابسي و بحثت في كل شجيرة و شجرة حول النهر متخيلاً أنه ربما هذا الصوت كان يصدره أحد من أصدقائي ليمزح معي و لكن لم تقع عيني على أحدٍ قط و حينما عدت إلى المنزل وجت صديقي يغط في سبات عميق."

ذعرت (جوليا) مما سمعت و أزرق وجهها و تقشعر بدنها و سَرَتَ فيه رعشة من الخوف و الهلع كما لو كانت مصابة بالحمى. سَمِعَتْ أثناء طفولتها قصص و أساطير عن مخلوقات و حشية تسكن في الغابة تحت ضفاف الأنهار و لا يمكن التغلب عليها إلا عن طريق تعاويذ فعالة. للحظة أخذت الهواجس تساورها ثم اشتد الخوف بها و تسأل نفسها هل الصوت الذي سحر (ألونزو) صدر من إحدى تلك المخلوقات؟ أو ربما، من يدري، كان صوت يارا اللعينه نفسها حيث أغوت الشباب في عشية زفافهم كفريسة لها.

و من ثم جلست الفتاة للحظة و هي بالكاد تطلق انفاسها من شدة الخوف و والأفكار تتمالكها و قالت في صوت مضطرب: "هل لك أن توعدني بشيء؟"

(ألونزو):"ما هو ؟"

(جوليا): "فذلك الشيء له علاقة بسعادتنا المستقبلية."

(ألونزو): "أوه! لابد أنه أمراً جاداً، إذا؟ حسناً بالتأكيد سأوعدكي، الآن أخبريني ؟"

(جوليا): "أريدك بأن تقطع لي وعداً ..... ثم همست لا تستحم بعد الآن في هذه البرك."

(ألونزو): " لما لا؟ يا موطن روحي، لاتقلقي فماذا لو التزمت عدم الذهاب إلى هناك، ولم يصيبني مكروه، يا زهرة حياتي؟

(جوليا): " لاتذهب لأنه من الممكن أن يحدث شيء. عدني بذلك و إلا سوف اذهب و الخوف يتمالكني."

(ألونزو): "ما الأمر ؟" فعلامات الخوف و الشحوب باديه على وجهكِ. صرحيني لماذا أنتي خائفة إلى هذه الدرجة ؟ "

سألت (جوليا) وصوتها يرتجف من الخوف :"هل سمعت أي غناء؟"

(ألونزو): "من المفترض ذلك. كيف لهذا الصوت أن يؤذيني؟ مع العلم أنه كان أفضل و أروع غناء لم أسمع مثيله."

(جوليا): "حسناً! وبعد هذا الغناء يظهر طيفها، ومن ثم .....وبعد ذلك ...."

(ألونزو):" لم أفهم جيداً. ماذا تعنين ومن ثم .... وبعد ذلك ....؟"

(جوليا): "ما سوف يأتي بعد رؤيتها .... الموت!"

أدام (ألونزو) النظر إليها بغرابةً و تسأل هل جنت جوليا؟ لأن كل ما قلته كان عجيباً و قبل أن يستجمع مشاعره عادت (جوليا) للحديث مرة أخرى:

(جوليا): "هذا هو سبب مناشدتي لك بعدم الذهاب الى هناك، على أية حال لا تذهب حتى يتم عقد زواجنا."

(ألونزو): "إذا ما الاختلاف الذي سيحدثه؟"

(جوليا): "أوه، لن تكون في خطر و حينها يمكنك الذهاب للإستحمام كيفما تشاء."

(ألونزو): "لكن أخبريني لماذا أنتي خائفة إلى هذه الدرجة ؟ "

أجابت (جوليا) بصراحة :" السبب هو ذلك الصوت الذي سمعته - أعلم جيدا أنك ستسخف بحديثي ولكن تلك هي الحقيقة المطلقة – أنه صوت يارا المرواغة."

في أثناء ذلك الحديث (ألونزو) لم يستطلع أن يتمالك نفسه فبدأ بالقهقهة العالية مما جعل جوليا تبتعد عنه و هي ترتجف من الخوف. فكلما ضحك على الفتاة المسكينة زاد شحوب وجهها و همهمت بالكلام في حين تنظر إليه:

(جوليا): "يا إلهي ! رأيتها ! رأيتها ! ماذا عسايا أن أفعل الآن؟"

و ما أن ترامت إلى مسامعه همهماتها فهز (ألونزو) رأسه و لكن لم يتمكن من لفظ أي كلمة لعدم تمالك نفسه عن الضحك.

(جوليا) :"قد لاتعلم ذلك، ولكنها الحقيقة، لا أحد يرى طيف يارا و يضحك بهذه الشاكلة." أرتمت (جوليا) على الأرض باكيةً بحرقة.

عندما رأى (ألونزو) حالتها، أخذ الامور على محمل الجد و ركع بجوارها ثم أمسك بيدها و انهضها بلطف.

(ألونزو): " لا تبكي يا زهرة روحي، سأعدكِ بأي شيء تريدينه، من فضلك اعيدي ابتسامتك الآن."

بعد جهد كبير لكفها عن التنهد،و بدأت في النهوض عن الأرض.

و أجابت :"شكراً لك الآن يطمئن قلبي بعد كلامك. أنا أعلم بأنك لن تحنث وعدك و ستبقى بعيداً عن الغابة ولكن يجب أن تعلم أن قوة يارا قوية للغاية كما أن صوتها العذب يغري الشباب عن فعل أي أمر في هذا العالم . أه! نعم رأيت ما يربوا عن واحدٍ خان حبيبته و هي الان تعيش وحيدة و تركها محطمة القلبي. فأذا عدت الى البركة و حينها سمعت صوتها. أعدني بإنك ستأخذ على الأقل هذا معك. "فتحت ذلك الصندوق المزخرف بالنقوش و أخرجت صدفة زاهة بجميع ألوانها، وغنت أغنية بداخلها بصوت واطي. ثم أخبرت (جوليا)(ألونزو): " أنه في اللحظة التي تسمع صوت يارا، ضع تلك الصدفة اتجاه أذنك ستسمع صوتي عوضا عن صوتها. ربما- لا أعرف في الواقع – أصبح أقوى تأثيراً منها."

في وقت متأخر من تلك الليلة المليئة بالاحداث و في طريق عودته للمنزل . كان يعكس القمر ضوءه على ذلك النهر البعيد فيغريه بمنظر الجذاب و بدا أن أشجار الغابة تمد ذراعها وتقترب منه و مع ذلك أدار وجهه من غير تردد في الإتجاه الآخر و من ثم عاد إلى المنزل ليخَلُد الى النوم.

لقد كانت مجاهدة النفس صعبة، لكن (ألونزو) حصل على مكافأته في اليوم التالي حينما استقبلته جوليا و هي فرحة و تشعر بالإرتياح، أكد لها أنه بتغلبه على إغواء يارا هذه المرة، فإن الخطر قد زال الآن. بفضل معرفتها بسحر وجه يارا و صوتها أكثر منه، لم تنسى أن تجعله يكرر وعده إليها عند انصرافه.

حفظ (ألونزو) وعده مدة ثلاث ليالٍ ليس لأنه يصدق تلك القصة و لكن لأن الأساطير عنها كانت كلها هراء و في واقع الامر فعل ذلك لأنه لن يستطع تحمل دموعها المنهارة التي ستستقبله يارا بها. اذا اعترف لها بالعودة إلى الغابة، و لكن، على الرغم من هذا رن لحنها في أذنه و أصبح يزداد روعته كل يوم.

في جَوْفَ من ليلة اليوم الرابع، بدا تأثير الغابة جَارفُ عليه بحيث لم يدع لفكرة جوليا و لا الوعود التي أوفاها بها تُثنيه. ففي تمام الساعة الحادية عشر اقحم (ألونزو) في ظلام الأشجار الخافت و أخذ الطريق المُؤَدٍ إلى النهر، ومع ذلك، لأول مرة، خطر في باله تنبيهات جوليا حيث حفرت في ذاكرته في حين أنه في تلك اللحظة كان يستهزأ منها. فبينما كان (ألونزو) ماشياً، أختلس بنظره إلى الشجيرات بإحساس من الخوف نوعاً ما الذي كان جديداً عليه تماماً.

فحينما بلغ النهر، انتظر هُنَيْهَةً و نظر حوله ليتقن أن ما انتابه من شعور غير مريح لشخص يراقبه كان توهماً، و لكن على نحو ساطع، عكس القمر وميضه على كل شجرة. ما رأى شيء سوى ظله كما أنه ما سمع شيء سوى صوت خليل جريان الماء.

ألقى بثيابه مسرعاً دون اكتراث و كان على وشك الغطس برأسه حينها و دون سابق انذار تسبب شيء- ماعرف ماهو بالتحديد- جعله يلتفت الى ما حوله و في نفس الحين اجتاز القمر الغيمة و عكس أشعته على فتاة باهرة الجمال ذات شعر أشقر لامع واقفة و نصفها مخبئاً بشعيبات السراخس.

بقفزة واحدة ألتقط بعبائته ثم هرع مسرعاً إلى المسار الذي أتى منه، خائفاً في كل خطوة من الاحساس بيد تمسك بيه من كتفه. بمجرد أنه ترك أخر شجرة، ظل واقفاً في السهل الفسيح و ما أن إلتفت خلفه إلا و قد شبه له طيف برداء أبيض كانت لاتزال تقف هناك و تلوح بيدها ذهاباً و إياباً فذلك كان كافياً ليركض بأقصى مما كان عليه نحو طريق العودة و لايتمهل مطلقاً حتى أصبح آمناً في غرفته.

ففي إسْفارُ الفجر، عاد (ألونزو) إلى الغابة ليرى ما إذا تمكن من إيجاد أي أثار لطيف يارا فمع أنه بحث في كل مجموعة من الشجيرات كما بحث عنه أعلى كل شجرة، آملاً أن يجد شيء، فقد كانت الأصوات الوحيده التي سمِعَها كانت تلك الأصوات البشعة الصادرة من الببغاوات التى دفعت الناس بعيدا عن الغابة.

تحدث إلى نفسه قائلاً :" لابد أنني معتوهاً و لابد إنني تخيلت كل تلك الحماقة" و في عودته إلى المدينة شرع في عمله اليومي و لكنه في ذلك اليوم كان أصعب من المعتاد، أو أنه أصبح مريضاً لذا لم يكن قادراً على التركيز في عمله و كل من صادفه طوال اليوم تساءلوا اذا حدث خطب ما جله يبدو في حالة هذيان .

ثم عاد يحدث نفسه قائلاً "يبدو أنني مصابُ بالحمى " "وبعد كل ذلك، أنه من الخطر نوعاً ما أخذ حماما بارداً عندما يشعر المرء بارتفاع درجة حرارة جسده.".علم للتو، حينما قال ذلك، أنه كان ينتظر قدوم الليل بفارغ الصبر، ليعود للغابة مرة أخرى.

مع حلول المساء، ذهب كالعادة إلى ذلك المنزل المغطى بالنباتات المتسلقة و لكن كان من الأفضل ألا يذهب هناك حيث كان وجهه شاحباً للغاية و سلوكه كان غريباً لدرجة أن الفتاة المسكينة شعرت بأن شيء مريع قد حدث، بالرغم من (ألونزو) رفض الرد على أي من أسئلتها ،كل ما حصلت عليه حينها هو وعد بإصراحها بالأمر غداً.

بحجة الأصابة بصداع مفاجيء و عنيف، ترك جوليا في وقت مبكراً عن المعتاد له ثم هرول مسرعاً إلى المنزل ، قام بتفكيك المسدس و عمر ذخيرته بالرصاص و وضعه في حزامه و تسلل على أطراف أقدامه قبل منتصف الليل بقليل لكي لايزعج أحداً و حالما أصبح في الخارج، أسرع (ألونزو) إلى الجنوب حيث الطريق المؤدٍ الى الغابة.

ظل راكضاً حتى وصل إلى بركة النهر و حينها كان يمسك بالمسدس في يده، بحث عنه في كل ضجيج خافت- صوت سقوط ورقة ، خشخشة الحيوانات في الشجيرات، صراخ الطائر الليلي -أظهر وصوب مسدسه نحو الصوت. على الرغم من أن القمر مازال عاكساً وميضه إلا أنه ما رأى شيء. و بدأت تتسلل إليه حالة منامية بينما كان يتكئ على جذع شجرة.

فكم من الوقت بقى على هذه الحالة، فلم يتمكن من معرفة ذلك و لكن فجأةً أستيقظ عند سماع أسمه يلفظ برقة.

أصاح (ألونزو): من هذا ؟ واقفاً على قدميه فوراً و ما أجابه سوى صدى الصوت و من ثم أصبحت عيناه مفتونةً بمياه البركة المظلمة حيث تقترب من أقدامه ، ومع ذلك نظر إليها كما لو لم يقدر تماماً على إشاحة ببصره عنها.

في حين أنه أطال النظر في تلك الأعماق بضعة دقائق، عندما أدرك أن في اسفل هذه الظلمات شرارة ساطعة ما زادت و أصبحت أكثر أشراقاً من ذي قبل و أستحوذ عليه مجدداً ذلك الشعور بالخوف المريع بينما حاول ابعاد عينه عن البركه كان هناك شيء أقوى منه ألزمه على ابقاء بصره في هذا الإتجاه.

و في نهاية المطاف، بدء الماء يغيض ببطء في حين أنه رأى تلك الفتاة الجميلة التي هرب منها قبل بضعة ليالي فقط، أستدار و لكن جُمدت قوائمه فلم يستطع أن يركض.

ابتسمت له و وضعت ذراعها فحينها خطر في باله صورة (جوليا) ،كما رأها قبل عدة ساعات، و تحذيراتها و مخاوفها من الخطر المحدق الذي يمر به ألونزو الآن.

في غضون ذلك، واظب الطيف على التسحب أقرب فأقرب مع محاولات مبذولة تمكن (ألونزو) من استعادة رُشده ومن ثم أطلق الرصاصة مستهدفاً كتفها، ذلك العيار الناري تردد دويّه في أرجاء الغابة الساكنة وعلى الرغم ذلك ظل طيف يارا على وجهها الابتسامة واستمرت في التقدم للأمام و في كرة أخرى أطلق (ألونزو) الرصاص و في المحاولة التالية أصدر الرصاص صفيراً في الهواء و استمر الطيف في التقرب أكثر فأكثر، في لحظة أخرى أصبحت يارا بجواره.

حينذلك كان المسدس فارغاً و لم يجد أمامه سوى ماسورة سلاحه ليمسكها بكلتا اليدين بقوة و وقف على أهبة الإستعداد مستخدمه كدفاع عندما تقترب يارا وتصبح أقرب إليه. بل لوحظ أنه يبدو عليها الخوف لذا تنهدت للحظة بينما خطى للأمام مسرعاً، ظل ممسكاً بالمسدس فوق رأسه واستعد للهجوم.

و في لحظة هذه الأحداث المثيرة نسى (ألونزو) النهر بمجرد أن المياه الباردة لمسة أقدامه و أخذ في التقدم نحو الطيف و لم يتوقف إلا بالفطرة. فهمت (يارا) أنه كان يترنح، و كانت تعاني من التمايل رويداً للأمام و الخلف على سطح النهر، ومن هنا بدأت بالغناء. عم الغناء في أرجاء الغابة و دوى صداه في كل مكان، تارة تبدو لمسامعه بعيدة و تارة أخرى قريبة، فلا أحد يعلم من أين أتى ذلك الصوت. بدأ (ألونزو) بفقد توازنه و إدراكه و سقطت ذراعيه بقوة إلى جانبيه وفي لحظة سقوطها إلى الاسفل ارطدمت بصدفة البحر حيث ،كما وعد جوليا من قبل ، واظب على حملها في معطفه.

كان عقله كافياً و منيراً في تلك اللحظة بتذكر ما قالته (جوليا) و فقد قام بأصابع مرتجفة التي كانت شبه عاجزة عن الإمساك بشيء، سحبه الصدفة للخارج فحينما فعل ذلك أصبح الغناء أكثر جمالاً ورقة من ذي قبل إلا انه صد أذنيه بها و أمال رأسه على الصدفة، في تلك الظروف العصيبة تصاعد غناء جوليا له كما غنت حينما منحت له الصدفة و مع أن النغمات لم تبدو واضحة في البداية إلا أنها ارتفعت أعلى فأعلى حتى تلاش السَدِيم المجمع حوله.

عندئذن رفع رأسه ، و شعر أنه كان في أماكن غريبة، لن يستطيع أن يتجول إليها أبدا مرة أخرى؛ استجمع ألونزو قواه و بدأ ينظر حوله.

ما رأى شيء سوى لمعان النهر و ظلال الأشجار العاتمة، و ما سمع شيء سوى طنين الحشرات التي تتحرك طوال الليل.